

[٢]

مشروع المرادي الحضرمي

بين السياسة والأخلاق

(مرايا الأمراء)

obeikandi.com

## تقديم:

من المعروف أن الفكر الإنساني يستجيب بصفة عامة للواقع المادي والاجتماعي والخبرة الحياتية التي يعيشها الإنسان على الأرض، والفكر السياسي هو الفكر الذي ينبض بالحياة في رصيد المعرفة الإنسانية. وهو انعكاس واع لإدراك الإنسان حقيقة أنه بحاجة إلى تنظيم جوانب حياته مع أقرانه لكي يتمكن من حفظ بقائه وإشباع حاجاته المختلفة.

ولقد كانت المسألة الرئيسية التي دار حولها الفكر السياسي في الإسلام بنوعيه الفقهي، وغير الفقهي هي: تحديد المبادئ أو الأسس التي يجب أن يقوم عليها الحكم في المجتمع الإسلامي، وكيف يمكن للحاكم خليفة كان أو أميراً أن يحتفظ بحكمه ويحظى برضى رعيته ويحقق أسس العدل والإنصاف بينهم.

ولقد تعددت مؤلفات المفكرين الإسلاميين في هذا المجال سواء في المشرق أو المغرب، وإذا كانت الأحكام السلطانية للمهاوردي تعتبر أشهرها في المشرق، فإنها في المغرب قد ظهرت في السياسة لابن حزم، والإشارة في تدبير الإمارة للمرازي الحضرمي، إلى الشهب اللامعة لابن رضوان المالقي، إلى مقدمة ابن خلدون حتى ابن الأزرقي في كتابه بدائع السلك في طبائع الملك وغيرها من المؤلفات التي حاولت أن تكون تعبيراً وانعكاساً للعصر الذي تعرض له. غير أننا نلاحظ أن أهم هذه الكتب في المغرب العربي كان كتاب "السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة" للمرازي الحضرمي لأننا استطعنا أن نقف من خلاله على طبيعة الحياة السياسية في ظل دولة المرابطين في القرن الرابع الهجري،

خاصة وأن كتاب السياسة لابن حزم السابق على المرادي الحضرمي قد فقد ولم نعثر له على أثر.

والواقع أن ما يقدمه المرادي الحضرمي متعلقا بالفكر السياسي الإسلامي إنما يدخل فيما يطلق عليه مرايا الأمراء، وهي التي تؤكد الحق الإلهي للملوك في الحكم وتهتم بالجانب العملي في الحكم أكثر من الجانب النظري، كما أنها تمزج قواعد الحكم الإسلامي بتقاليد الفرس في الملك، إلى جانب اعتمادها على الكثير من الحكم والمواعظ التي وردت في الفلسفة اليونانية خاصة بالجوانب السياسية والأخلاقية.

كما ارتبطت النظرية السياسية عنده بالمقومات الاجتماعية للجماعة الإسلامية من ناحية، وبالقيم الأخلاقية من ناحية أخرى، ولذلك كان اهتمامه بالأمة والجماعة وما يجب أن يتوافر فيها، والقيم والمبادئ الأخلاقية التي تضمن تحقيق الاستقرار والاستمرار وما يصاحبها من الفضائل وما يعوقها من الرذائل إلى غير ذلك من الجوانب الأخلاقية التي لم تنفصل عن الجانب السياسي عند المرادي الحضرمي.

وهذا البحث يعد محاولة لتقريب شخصية المرادي الحضرمي إلى قراء الفكر والتراث الإسلامي، فقد ظلت هذه الشخصية مطمورة بعيدة عن الضوء والاهتمام حتى قدر لها أن ترى النور من خلال قيام أستاذ الفكر الإسلامي د. علي سامي النشار بالكشف عنها، وتحقيق أهم آثارها، وهو كتاب "السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة" وسوف يجيب هذا البحث عن التساؤلات الخاصة بشخصية المرادي الحضرمي وثقافته عامة ولماذا اهتم بالفكر السياسي؟ وما هي

المؤثرات البيئية التي ساعدت على ظهور فكره السياسي؟ وما أهم مؤلفاته؟ وما الأفكار الرئيسية التي أقام عليها فلسفته السياسية؟ وهل كانت أفكاره السياسية انعكاسا لما ساد بيئة المغرب والأندلس من صراعات بين الأمراء والسلاطين؟ أم كانت تأكيداً لسياسة الدولة المرابطية التي أرادت توحيد المغرب العربي بعد حكم الطوائف الذي أشاع الفوضى وأثار الخلاف بين الأمراء والملوك نزاعاً على السلطة والحكم؟ وهل كان لأرائه وأفكاره أثر على مفكري السياسة من بعده؟

وكل ذلك سيقودنا إلى أن نضع المرادي الحضرمي في مكانه الصحيح بين مفكري السياسة في الحضارة الإسلامية.

## أولاً: المرادي الحضرمي من المنظور الشخصي (النشأة الأولى وظروف العصر).

هو أبو بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي، ورغم إهمال كتب التاريخ لذكر شيء عن نشأته الأولى وحياته مع ما حظي به من مكانة خطيرة في ظل دولة المرابطين، فقد أوردت كتب طبقات الرجال بعضاً من أخباره، فقد ذكرت أنه توفي عام ٤٨٩هـ ولم تمدنا بتاريخ مولده، والأرجح أنه ولد في أوائل القرن الخامس الهجري، وتوفي في آخره.

ومع أن نشأته الأولى كانت ولا تزال مجهولة بالنسبة لنا حيث لم يرد تفاصيل لذكرها في كتب المؤرخين - كما ذكرت - إلا أنه من المؤكد أن ثقافة المرادي الحضرمي كانت ثقافة واسعة وعميقة، فقد ألم بعلوم عصره الدينية وخاصة علوم العقائد وأصول الدين (علم الكلام) وعلوم القرآن والفقه<sup>(١)</sup>، ويذكر "ابن بشكوال" أنه كان عالماً بالفقه وقد أهله هذا لتولي منصب القضا<sup>(٢)</sup>، ويذكر "ابن الأبار" أنه كان رجلاً نبياً عالماً وإماماً في أصول الدين، وله نهوض في علم الاعتقادات والأصول ومشاركة في الأدب وقرض الشعر، وكان ذا حظ وافر في البلاغة والفصاحة كما يقول "وله في أصول الدين تواليف حسان"<sup>(٣)</sup>، كما أتقن علوم اللغة إتقاناً تاماً، وهي العلوم التي كان على طالب العلم في البلاد الإسلامية دراستها بعد حفظ القرآن، كما أنه وقف على كتاب

(١) ابن الزيات: التشوف ص ٨٣-٨٤.

(٢) ابن بشكوال: الصلة ج ١ ص ٥٤٧-٥٤٨.

(٣) ابن الأبار: المعجم ص ٣٧٥.

اللغة "أبي منصور الثعالبي"، كما استفاد بكتبه الأدبية وكذلك كتب "ابن المقفع" وخاصة كتاب كليلة ودمنة، والدرة اليتيمة والتمثيل والمحاضرة، والأدب الصغير، والأدب الكبير، حتى أن "ابن بسام" نعته في كتابه الذخيرة بأنه الأديب والفقهاء<sup>(١)</sup>.

ويبدو أنه تلقى ثقافته وتعليمه الأول في مدينة القيروان، مما يدل على ذلك كلمه القروي المنسوبة إليه، وأكد "ابن الأبار" ذلك حين ذكر في ترجمة لابنه على أن أصله من<sup>(٢)</sup> القيروان.

كذلك اهتم المرادي بالعلوم العقلية السائدة في عصره كعلم الكلام - كما ذكرنا - ويبحث في كثير من المشكلات الكلامية وإليه يعود الفضل - كما يقرر ابن بسام - في معرفة "أغمات بالمغرب الأقصى" بقضايا الكلام ومشكلاته<sup>(٣)</sup>، ومما يدل على ذلك أنه رد على وليد بن عبد الوارث الملقب بالبقرى، وكان يسكن "المرية" ويقول بقدم الحروف، وجاء رده في قصيدة شعرية غاية في العمق والتفلسف إذ يقول<sup>(٤)</sup>:

(١) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، المجلد الأول ص ٣٦٤ - ٣٦٧.

(٢) ابن الأبار: المعجم، ص ٤٧٣.

(٣) ابن بسام: الذخيرة، المجلد الأول ص ٣٦٥.

(٤) المرجع السابق ص ٣٦٥ - ٣٦٦.

لا در در سـخافة	شنعاء جاء بها الوليد
كفر تكاد الجبال	على ثقافتها تميد
قل للرئيس الأحوصي	ورأيه أبدا سديد
حمق المؤدب فادعي	من بينهم ما لا يجيد
مكتموه من الكلام	وجهلته أبدا يزيد
وتركتموه مسرحا	أين السلاسل والقيود؟
أغلا الحديد بأرضكم	أم ليس يمكنه الحديد

وكان له تلميذ في علم الكلام يعد من أكبر علماء مدينة مراكش وهو "أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير المتوفى في سنة ٥٢٠هـ وفيه يقول ابن الزيات " خلفه أبو الحجاج في علوم الاعتقادات وغلب عليه الزهد في الدنيا وأهلها، وكان لباسه الخشن من الصوف، وكان يختلف من مراكش إلى أغمات، وله أرجوزة صغرى في علم الاعتقاد قرأها عليه القاضي أبو الفضل عياض.<sup>(١)</sup>

كذلك ألم المرادي بكتب الفلسفة وقرأ الكثير منها والذي كان منتشرًا في بلاد المغرب على عهده سواء أكانت هذه الكتب خاصة بفلاسفة اليونان، أو فلاسفة المشرق الإسلامي، ويبدو أنه أطلع عليها حينما كان في القيروان موطن نشأته الأولى، ولكنه تعمق فيها، واعتنق معظمها في قرطبة حيث كان يجالس

(١) التلمساني: أزهار الرياض في أخبار عياض ص ١٦١-١٦٢، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب ج ٢ ص ١١١-١٢٣ وانظر أيضا: المراكشي: الأعلام ج ٢ ص ٣١١-٣١٢.

العلماء في حلقات العلم آنذاك، وهو كثيرا ما يستشهد بأراء الحكماء والفلاسفة وخاصة أرسطو في كتابه السياسة، والذي كان له أثره الكبير في اهتمام المرادي بالفكر السياسي.

كذلك أطلع على أكثر مؤلفات المفكرين والفلاسفة السابقين عليه بالمغرب العربي فقد قرأ كتب ابن حزم في الفلسفة والمنطق والسياسة، كما سمع عن ابن باجة فيلسوف العقل المعاصر له، وصاحب كتاب "تدبير المتوحد" الذي ضمنه رؤية عقلية سياسية لما يجب أن يكون عليه المجتمع والدولة في ظل العصر المرابطي.

وإذا علمنا أن أكثر مؤلفات فلاسفة المشرق قد دخلت إلى بلاد المغرب كمؤلفات الفارابي وابن سينا والغزالي، وكذلك المؤلفات السياسية لمفكري المشرق كالأحكام السلطانية للهاوردي، وكتاب الوزارة، وكتاب تسهيل النظر وتعجيل الظفر وكتاب نصيحة الملوك للهاوردي وأيضا كتاب الجاحظ في أخلاق الملوك، والرجل لم ينكر ذلك وهو يستشهد بالكثير من أقوال ابن المقفع، وابن قتيبة، والثعالبي، بل إننا نلمح روح الجاحظ في ثنايا كتاباته، والمعروف أن كتاب الجاحظ "التاج في أخبار الملوك" كان قد دخل منذ وقت مبكر إلى بلاد المغرب مع غيره من كتب السياسة، وكان الجاحظ قد شغل بأمر الانقسام الذي أصاب الجماعة الإسلامية والمنازعات بين العرب والموالي، وهو ما جعل المرادي يشير في كتابه إلى أهمية وحدة الأمة وعدم تفرق السلاطين، إذ يقول "ليعلم أصحاب السلطان أنهم كالبنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضا"، وكأسنان المشط الذي لا ينفع أحدهما إلا بصاحبه، ولا يستعين على

شغله إلا به، فإنهم يوم يقتل أحدهم بالبغي قد قتلوا به جميعاً، وأنهم على حد من الخطر لا مثال له ولا شيء يشبهه.<sup>(١)</sup>

وهو أيضاً يقترب من الجاحظ الذي يوحد بين الدولة التي تقوم في الأصل على أمر إلهي، وبين الحاكم الذي يحتل مكانة متوسطة بين الله والناس، والطاعة واجبة له كما هي واجبة للأنبياء<sup>(٢)</sup>، فسعادة الرعية الذين حباهم الله بحكمه تكمن في الطاعة وتبجيل الملوك، وأن الملوك هم الأس والرعية هم البناء، ومن لا أس له مهدوم، ويضيف أن الله فرض طاعة من أطاع الله من الملوك حتى قرنها بطاعته وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعدل يتمثل في إعطاء الملك كل فرد من الرعية المكانة التي يستحقها، ويحدد أهم الصفات اللازمة للملك أو السلطان، وقد تابعه المرادي في ذلك وجاءت أكثر أبواب الإشارة في تدبير الإمارة مؤكدة لما سبق وإن تناوله الجاحظ في مؤلفاته السياسية.

وعلى ذلك فليس هناك ما يمنع من القول بأن المرادي الحضرمي قد أطلع على هذا التراث الفلسفي عامة، والسياسي خاصة، بحيث أمكنه وهو صاحب العقلية المستنيرة والذكاء المتقد أن يستوعب هذا الكم الهائل من الثقافة المتنوعة ليخرج بعد ذلك في صورة بارعة نادرة تمثلت فيما تركه من مؤلفات عديدة سواء في علم الكلام أو الأخلاق أو السياسة أو الشعر والأدب، فقد ذكر صاحب كتاب الذخيرة كتاباً له يسمى "التحرير" ويبدو أنه في الفكر السياسي، قال عياض "وأجازني" يقصد موسى الكلبي أستاذه وهو تلميذ المرادي

(١) المرادي: السياسة ص ١٠١.

(٢) الجاحظ: التاج ص ١٣-١٥.

الحضرمي "أرجوزته الكبرى وجميع تأليفه ورواياته، وكتاب التحرير لشيخه المرادي- وعن المرادي كان أكثر أخذ أبي الحجاج" ويبدو أن هذا الكتاب قد فقد، فلم يعثر له على أثر، ولكن التاريخ حفظ لنا كتابه الهام "السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة" وهو كما نعلم من أهم الكتب في مجال الفكر السياسي أو السياسة الأخلاقية التي ظهرت في بلاد المغرب.

كذلك كان للأفكار الفلسفية أثرها في نظرتة ورؤيته لبعض قضايا الفلسفة ومشكلاتها كمشكلة حرية الإنسان، والقضاء والقدر، غير أنه صاغ حيرته في صورة شعرية تدل على عمق تفكيره وحيرة نفسه، وقد أضفى عليها من روحه، وأسبغ عليها من ثقافته وأسلوبه ما تجاوز به أفكار الفلاسفة والمفكرين السابقين عليه إذ يقول<sup>(١)</sup>:

يقضي بأني محمول على القدر  
ما كنت أطرحها في لجة العذر  
أكن لأفعل أفعالا بلا قدر  
فلم أشاركه في نفع ولا ضرر  
أو شاء صورني في أقبح الصور  
عدلا على فهب لي صفح مقتدر

علمي بقبح المعاصي حين أركبها  
لو كنت أملك نفسي أو أصرفها  
كلفت فعلا ولم أقدر عليه ولم  
وكان في عدل ربي أن يعذبني  
إن شاء نعمني أو شاء عذبني  
يا رب عفوك عن ذنب قضيت به

(١) المقرئ التلمساني: أزهار الرياض في أخبار عياض ص ٦١-٦٢، ملحق بكتاب الإشارة

وكما ذكرنا سابقاً، ورغم إهمال كتب التاريخ له فقد تحدث كتاب طبقات الرجال عن بعض أخباره التي كان أهمها أنه بعد وفاة "عبد الله بن ياسين" مؤسس دولة المرابطين، إرتبط الأمير "أبو بكر بن عمر" -الذي تولي الخلافة بعده- بمفكر من أكبر علماء الإسلام في أغمات، وأنه اصطفاه وجعله قاضياً في "أذكى" وهو أبو بكر بن الحسن الحضرمي المرادي، وقد ظل بها حتى وفاته، غير أنه في أغمات وريكة كان له حلقة من حلقات العلم يلتف حولها تلاميذه ومنهم أبو الحجاج يوسف الكلبي الذي خلفه في علوم الاعتقادات، كما خلف المرادي ابناً كان من كبار علماء المسلمين في علم الكلام والحديث وهو أبو الحسن علي بن محمد بن الحسن الحضرمي المرادي<sup>(١)</sup>. ويقال أنه دفن ببلدته "إطار" بالجنوب الموريتاني وأن قبره يشهد ويزار ويتبرك به<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن الزيات: التشوف ص ٨٣-٨٤.

(٢) ملحق كتاب الإشارة ص ١٧١..

## ثانياً: النسق السياسي عند المرادي الحضرمي (المضمون والغاية):

إذا حاولنا تحليل مضمون ما يقدمه المرادي الحضرمي متعلقاً بالفكر السياسي الإسلامي لوجدنا أنه يدخل فيما يطلق عليه مرايا الأمراء (وهي الكتب التي ألقت لتأديب الأمراء في أمور السياسة وتتخذ موقفاً وسطاً بين آراء الفقهاء من جهة، وآراء الفلاسفة من جهة أخرى، ويرجع أصل هذه الكتب إلى ما قبل ابن المقفع الذي قام بدور هام في تطويرها) وهذا الاتجاه يؤكد الحق الإلهي للملوك في الحكم، ويهتم بالجانب العملي في الحكم أكثر من اهتمامه بالجانب النظري، وهي تحاول أن تمزج بين قواعد الحكم الإسلامي وبين تقاليد الفرس الساسانية في الملك، هذا إلى جانب التأثير بالكثير مما ورد في الفلسفة اليونانية خاصة بالجوانب السياسية والأخلاقية، فلم تكن السياسة فرعاً مستقلاً عن المعرفة، وإنما هي جزء من العلوم الدينية، والدين لم يكن منفصلاً عن السياسة، كما أن السياسة لم تكن منفصلة عن الأخلاق، ولما كان النشاط الفكري للمسلم في علاقته بالدولة يقوم على أسس ميتافيزيقية ودينية، فقد ترتب على ذلك أن المعارضة في المسائل الدنيوية كانت ترقى إلى رتبة العصيان السياسي، بل والخيانة ذاتها، أما القاعدة الأساسية التي تقوم عليها رؤيته السياسية فهي تحقيق العدالة والاستقامة والمعرفة استناداً إلى أن البناء السياسي في الإسلام يقوم على قاعدة الأمة أو الجماعة اللتان ترتبطان ببعضهما ببعض بروابط الدين، وعلى ذلك فجميع أفراد هذه الأمة متساوون لا فرق بين كبير وصغير، وإنما يكون التمييز بينهم في العمل، والله وحده هو رب هذه الجماعة وحاكمها، وحكمه مباشر بلا وسائط، أما نظامها الداخلي فهو قائم على الرضى

بأحكام الله وخضوعهم لتلك الأحكام، وطاعتهم لرأس الجماعة أو السلطان.

إنه يتكلم عن أخلاق الأمراء وقواعد السلوك، ثم ينتقل إلى فنون الحزب وقيادة الجيوش وأساليب الدهاء، ويوصي بإتباع فكر أرسطو في الوسط العدل بوصفه معيار السلوك القويم، وهو أقوى الوسائل لإقرار الأمور والقضاء على دواعي الفتن والعداء والشور القائمة، وأصبح واجب الحاكم المحافظة على التوازن بين الطبقات، بإبقاء كل منها في موضعه المحدد له.

ويؤكد المرادي الحضرمي الذي كتب مؤلفه في عصر كانت فيه قوة المسلمين في الأندلس آخذة في الاضمحلال أن الملك إنما يحول دون ما يخالف الشرع أو القانون، وأن علاقة السلطان برعيته هي المحور الذي تدور حوله حياة الجماعة، وقد مثلها بعلاقة الروح بالجسد، والعدل هو علاقة الانسجام التي تربط بين أفراد المجتمع في إطار نظام عام بأمر الله بحيث بقيت عناصر هذا النظام في توازن تام.

والملاحظ أنه نظراً لاهتمام المفكرين بقضية نظام الحكم في الإسلام، فإنهم قد بحثوها من وجهة نظر الشرع فقط<sup>(١)</sup>، وقد جعلت مسألة الحكم من اختصاص الفكر الديني لا الفكر السياسي، وقد أدى هذا بالإضافة إلى الخوف من الأحكام إلى عدم ظهور فلسفة سياسية في الفكر الإسلامي على الرغم من إطلاعهم على جمهورية أفلاطون، وكتاب السياسة لأرسطو، وكان من نتيجة ذلك أن اقتصر البحث في شؤون الحكم خارج الإطار الفقهي على جانب

(١) محمد ضياء الدين الريس: النظريات الإسلامية ص ١٢٣ وما بعدها.

هامشي لا يتناول أساس المشكلة، وإنما يبحث فقط في آداب السياسة والملوك.

هذه الآداب التي ألفت فيها رسائل وكتب في مختلف العصور الإسلامية ابتداء من ابن المقفع، والجاحظ، والماوردي ومرورا بابن حزم، والمرادي الحضرمي إلى أبي بكر الطرطوشي، وابن رضوان المالقي، وابن الأزرق ومن جاء بعدهم، وكان معظم هؤلاء الذين كتبوا في هذا الجانب من كبار موظفي الدولة، وكثيرا ما كانوا يفعلون ذلك بطلب من الخلفاء والحكام أنفسهم، فسياسة المرادي وشهب ابن رضوان خير دليل على ذلك.

لقد كان المحور الأساسي الذي يدور عليه ما ألفت في هذا الموضوع، هو بيان أحسن الطرق التي تمكن الحاكم من كسب ولاء رعيته، والحفاظ على مملكته، وكانت مادتها الخام هي ذلك العدد العديد من الحكم والأمثال التي تنسب إلى حكماء الفرس واليونان، والهند ممن اصطلاح على تسميته في الأدب العربي بالسياسة الملوكية أو الآداب السلطانية<sup>(١)</sup>. وفي ذلك يقول المرادي.....  
 "ولذلك نظمت لك في هذا الكتاب دررًا من آداب الإمارة والوزارة وفصلت في ثنياه فصولا من أنواع الإدارة والاستشارة، واصفة لآداب المتقدمين، وكاشفة لأمر الدنيا والدين، فإذا استقبلتها بذهنك وتأملت غوامضها بفكرك، واستعملت معانيها بجوارحك..... قل مثالك، وجلت أحوالك، وشرفت آدابك، وكرم أصحابك، وامتنع جنابك، وحوى الفضائل كلها

(١) د. سعد الدين إبراهيم: المجتمع والدولة في الوطن العربي ص ٧٩-٨٤، رضوان السيد:

الأمة والجماعة والسلطة ص ١٢٢-١٤١.

بابك" (١).

ويبدو أن الفقهاء كما يقول د. عابد الجابري لم يكونوا راضين عن هذا النوع من الحكم السياسية باعتبار أن آداب الحكم والسياسة يجب أن يبحث عنها في الشريعة وحدها، ولعل هذا ما دفع ابن تيمية الفقيه الحنبلي المتشدد إلى تأليف كتابه "السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية" ويعالج فيه من الوجهة الشرعية والفقهية ما يجب أن يكون عليه الحاكم، والطرق التي يجب عليه إتباعها للحفاظ على مملكته، وكسب ولاء رعيته، فالسياسة الشرعية تعد بديلا عن السياسة الملوكية أو السياسة المدنية. (٢)

(١) المرادي: السياسة ص ٥٥.

(٢) د. عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة ص ٢٠٢-٢٠٣.

### ثالثاً: الأسس والمبادئ التي يقوم عليها الحكم الإسلامي:

إن المسألة الرئيسية التي دار حولها الفكر السياسي في الإسلام بنوعيه الفقهي (أي الديني) والسياسي تمثلت في السؤال: ما هي المبادئ أو الأسس التي يجب أن يقوم عليها الحكم في المجتمع الإسلامي، ثم كيف يمكن للحاكم خليفة كان أو أميراً أن يحتفظ بحكمه ويحظى برضى رعيته؟

فإذا استقرأنا المؤلفات السياسية التي تركها المفكرون المسلمون لوجدنا أنهم حصروها في جانبين:

تحقق العدل، توفر المال والجند.

وقد سار المرادي الحضرمي في نفس الاتجاه واهتم بتحقيق القاعدتين السابقتين غير أنه أضاف إليهما قواعد ومبادئ أخرى إذ نجده يشير إلى:

(١) أهمية العقل والحكمة واعتبارهما أساس الحكم الصحيح:

اهتم المرادي بالجانب العقلي وضرورة الأخذ بالحكمة والدليل على ذلك أنه في مفتتح كتابه وفي تقديمه للأمير أبي بكر بن عمر يؤكد له أن حكمه معضد بالحكمة، ومتعهد بالسياسة وأنه لن ينال معالي الرتب إلا بالحكمة والأدب<sup>(١)</sup>، فالمرادي هنا لم يعدد أسباب القوة والبأس أو التسلط والاستبداد لاستمرار الحكم، وإنما أشار إلى أهمية الفكر والفلسفة والحكمة والأدب وسائر العلوم

اللازمة فيمن يتولى شئون الرعية ويؤكد ذلك بقوله "فمن المعالي أدركها بالحكمة، ومن أحب الحكمة أدركها بالنظر المنتظم، ومن عني بالنظر في الأمور أدركه بمساءلة العلماء، ومجالسة الحكماء استشارة ذوي الرأي من ثقافته"<sup>(١)</sup>.

والعقل عند المرادي الحضرمي أعظم هبة للإنسان، منحة إياه ليفرق بين الحق والباطل، والشريف والخسيس فهو مقياس الحكم والتفرقة في الجانب المعرفي والجانب الأخلاقي، غير أنه بمفرده لا قيمة له، بل لابد من التعلم والدرس والتأمل لكي يرقى هذا العقل، ويصل إلى أقصى مدارك المعرفة وحيثئذ يحصل للإنسان العقل الكسبي الذي تظهر به الحقائق، ويصير به الأشياء، ويعرف به النافع من الضار، وهو القادر على التحكم في أهواء النفس، والحاكم على القوة المصرف بحسب المنفعة وفي ذلك يقول "ومن لا علم له ضعيف وإن كان قويا، وفقير وإن كان غنيا، ونفسه زاهقة بأدنى حيلة، وماله ذاهب بأقل حادثة، والذي تفعله القوة بالتعب يفعله العلم بالراحة، والذي تهيئه القوة بالمعيشة، تهيئه الحكمة بالهويني"<sup>(٢)</sup>.

ويؤكد المرادي أن من لا يملك عقلا راجحا ولم يستعمل فكره فيما له وما عليه عرض نفسه للهلاك والضياع والحسرة، وقد نصحنا الحكماء بتقديم النظر الصحيح قبل جميع الأفعال، ويفرق بين نوعين من الأفعال المستحسنة:

أ- أفعال نطلب بها منفعة.

(١) المرادي السياسة ص ٥٣.

(٢) المرادي السياسة ص ٥٧.

## ب- أفعال تدفع بها مضرة.

وعلى الإنسان أن يقيس في أفعاله بين ما يحقق له النفع، وما يخشى به المضرة وسوء العاقبة، وأن ينظر في أيها الأولى بالإيثار والتفضيل، وأيها أولى بالترك والبعد عن الأفعال، ويكون ذا قدرة على دفع ذلك، ويستخدم الحيل المختلفة في دفعها.

فإذا تنبه الإنسان إلى كل ذلك، وتوخي الحذر، وأخذ الفطنة والفهم تجنب الخطأ وفاز بالحكمة، وأخذ بنصيب وافر من السياسة ويؤكد ذلك بقوله "فقد بان بذلك أن العلم

أصل وأن القوة فرع، وأن العلم روح، وأن القوة جسم"<sup>(١)</sup>

كما يقول "وأعلم أن الملوك العلماء بقيت بالعلم أذكاهم، وأن الملوك الجهال ماتت معهم أخبارهم"<sup>(٢)</sup>

ولا يقتصر دور العقل عنده على التمييز بين الحقائق والأوهام أو الكشف عن الحقائق فقط، بل أنه يضع المناهج والطرق التي يستخدمها الإنسان في الحياة وهو الذي يدرك قيمة الحياة، وهو روحها وديناميكيته، وإذا كانت الحكمة هي نتاج العقل فإن القوة والاستبداد هما نتاج الجهل.

(١) المرادي السياسة ص ٥٧.

(٢) المرادي السياسة ص ٦٩.

## (٢) تقديم النظر على التجربة والعمل، وإن كان للتجربة دورها في تحقيق الغايات:

ولا يقتصر المرادي على تأكيد دور العلم في الوصول إلى اليقين وتحقيق الغايات سواء أكانت سياسية أو أخلاقية، ولكنه يشير أيضا إلى ضرورة التجربة والدربة (التدريب والخبرة) لأن النظر الصحيح لا يستند فقط على مجرد التأمل النظري، بل لابد من التجربة: يقول المرادي "إن التجارب والدربة لها حظ من العلم والإجادة ويقدر ما لديك من تجارب بقدر ما تستقبل اليقين"<sup>(١)</sup>.

وعلى الإنسان أن يدرّب نفسه على تدبير الأمور قبل نزولها به لكي يكتسب خبرة ويكون قادرا على مواجهتها كاللاعب الذي يتسلح بالتدريب قبل منازلة أترابه، وكالجندي الذي يتدرب على المعارك قبل منازلة الأعداء، وحتى إذا نزلت به المصائب أو الأمور في أوقات الضيق فإن المرادي ينصحه بالألا يشغل باله بالحزن على ما أصابه، بل عليه أن يتخلص بسرعة من تلك الوحلة والمصيبة بأعمال الحيلة والفكر والتدبر.

## (٣) توفر المال والجند والقوة:

أشار المرادي إلى أهمية المال والجند في تدعيم السلطان وقيام الحكم والملاحظ أن المرادي لم يشر مطلقا إلى الغلبة أو العصية في قيام الدول والحكومات أو في تغلب الحكام بعضهم على بعض وإنما أثر على طريق الحكمة والعقل وجعلها أساسا ومبدأ القيادة وها هو يؤكد ذلك بقوله "ولن تنالي

(١) المرادي السياسة ص ٦٠.

معالي الرتب إلا بالحكمة والأدب.... ومن أحب المعالي أدركها بالنظر المنتظم" فالحكمة إذن عنده هي الطريق الآمن والسليم للوصول إلى الحكم الصائب والمرادي يقيم فلسفة الحكم طبقاً للحكمة وليس للقوة.

ولكن هذا الحكم الصائب لن يدوم دون الاعتماد على المال من جهة والجيش من جهة أخرى وفي ذلك يقول المرادي "والمملوك أشد الناس ذنباً في الائتلاف لأنهم لا قوام لهم إلا بالمال.... ولا تظهر المروءة والرأي والقوة إلا به"<sup>(١)</sup>.

ويؤكد أنه إذا أراد المرء أن ينجز أمراً أو يقوم به ولم يكن معه مال فقد قعد به العدم عنه وقد شبهه بالماء الذي يبقى في الأودية من مطر الصيف فلا يصل إلى نهر ولا إلى بحر لأنه لا مادة له.

غير أن المرادي يشير هنا إلى قضية هامة وهي ضرورة تنمية المال وعدم الاقتصار على ما كان يجلب من مغانم أو من جزية لأنها موارد غير ثابتة ويرى أن طريق التنمية هي خير طريق لاستمرار تدفق المال ويقول "ويجب على العاقل..... أن ينظر في التنمية فإن جبال الكحل، ما لم يكن لها مادة فنيت بما يجعل منها في الأعين، ويتناول منها بالمراد" فإذا عرف الإنسان ذلك وحدد غرضه وقصده خفت عليه الأحمال والمؤن كما يقول "وأعلم أن الجود (كسب المال والغنى) لا يتهياً مع ترك النظر في تنمية المال"<sup>(٢)</sup>. ولا شك أن كلام

(١) المرادي السياسة ص ١٤٣.

(٢) المرادي السياسة ص ١٤٣-١٤٤.

المرادي هنا يؤكد حقيقة هامة تتعارض مع اتجاه بعض المفكرين المعاصرين الذين اعتبروا أن ثروة الدولة الإسلامية التي أقام العرب عليها حضارتهم كانت تتكون في معظمها من موارد عمليات حربية (الغزو والفتح) مثل الفياء والغنائم والجزية والخراج، وهي لم تعط أهمية لكي تستثمر هذه الموارد، بل حصرت اهتمامها في كيفية توزيعها، فالأموال تجمع لا لتدخر وتستثمر، وإنما لتستهلك وتتفق على رجال الدولة والمحاربين بواسطة الحاكم، ويقرر د. عابد الجابري إن اقتصاد الغزو، ثروة تتجمع عند الدولة، بوسائل الدولة، لينفقها أهل الدول<sup>(١)</sup>.

كما يشير المرادي إلى فضيلة التوسط في الإنفاق فلا يسرف ولا يشح، بل عليه أيضا بالادخار لأن الجود لا يستقيم مع التضييع ولا مع التبذير ولا مع ترك النظر في تنمية المال.

وإذا كان للمال هذه الأهمية عند المرادي في دعم حكم السلطان فإن القوة هي الجانب الآخر الذي لا يقل في أهميته عن المال وفي ذلك يقول "والسلطان والوالي يحتاج في ولايته إلى سياستين ومن أهل بطانته إلى جنسين: سياسة وبطانة لتقوية ملكه، وسياسة وبطانة لجماله، وسياسة القوة أولى لأنها إذا انخرمت زال الجمال، وسياسة الجمال أحضرها لذة، وأظهرها حلاوة وقد تكون القوة من الجمال والجمال من القوة، ولكن الشيء ينسب إلى معظمه"<sup>(٢)</sup>.

(١) د. عابد الجابري: العصية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي ص ٤٠٥-

٤٣١.

(٢) المرادي السياسة ص ١١٠.

أما الجند والقوات فهم قوة دعم الحكم في الداخل والخارج وهنا نجد المرادي يفيض في بيان صفاتهم وخصائصهم، وحقوقهم على الوالي أو الحاكم، وواجباتهم ويرى أن جنود الحرب يجب أن يتوافر فيهم خصلتان:

إحداهما الشدة والثانية المروءة.

إذ أنه بالشدة يقاتل ويحارب بشجاعة، أما بالمروءة فإنه يثبت ويتأسك ويشتد في حميته فتزيد شجاعته.

أما عن حقوقهم فيرى المرادي ضرورة العمل على تثقيفهم وتعريفهم بأزماتهم أو معركتهم، كما يجب تعريفهم بقوادهم، وتلبية احتياجاتهم وأرزاقهم، كما يجب على الحاكم إعلامهم بالغرض الذي يجرون إليه من خدمته، والقدر الذي يستحقون عليه من كرامته بشرط ألا يدللهم ولا يجعلهم ييغون على رعيته لأنه إذا قوى السلطان جنده بإضعاف رعيته فهو مضعف لجنده ومتلف للملكه، وإذا أضعف جنده بقوة رعيته فهو متلف لجنده ومفسد للملكه، وإنما عليه أن يحقق العدل في سيرته وجبايته بين جنده ورعيته.<sup>(١)</sup>

وينصحه المرادي بأن يؤلف جنوده وجيشه من أجناس متفرقة وقبائل شتى حتى لا يتهيا لهم الاتفاق على رأي واحد في الخلاف، وأن يسوس جنده سياسة الحكيم العادل فلا يؤثر أحدهم على الآخر دون استحقاق، وإلا كان صاحب هوي، فينفر منك الذي أثرته خوفا من تغلب هواك، كما ينفر منك أيضا الذي أثرته عليه لأنه أعلم أنك قربته دون استحقاق فيترك الأعمال التي تنال بها

(١) المرادي السياسة ص ٩٤.

المنزلة كما يقول المرادي.

والملاحظ أن المرادي استعان ببعض صفات الحيوانات وخصالها وصيغها على قائد جنوده وهو بلا شك متأثر هنا بكتاب الأدب والبلاغة لابن المقفع وابن قتيبة إذ نجده يقول "ينبغي أن يدرب السلطان قائد جنده على وثبات كوثبات الأسد، وخطفات كخطفات الحدأة، وختلات كختلات الذئب، وروغان كروغان الثعلب، وصبر كصبر الحمار، وهجمات كهجمات الخنزير، وبكور كبكور الغراب، وحراسة كحراسة الكراكي"<sup>(١)</sup>.

ويشير المرادي أيضا إلى طريقة تكوين الجيش وضرورة تزويده بالآلات والعدد والسلاح، كما يتكلم عن فنون الحرب وقيادة الجيش وأساليب الدهاء كما ينصحه بأنه في سبيل الحفاظ على ملكه واستمرار قوته فعليه أن يصاحب بعض أعدائه ويداهنهم ليعرف أخبار بقيتهم ويهدم اتفاقهم جميعا، وإذا ابتلى بقوم استشهروا بالنفاق والبعد عن الحقيقة، فعليه أن يختار منهم رؤساء ويلقي بينهم الخلاف حتى يتنازعوا، فيكفيه بعضهم مؤونة بعض، ويبقى هو في أمن وراحة لأنهم إذا أنصلح ما بينهم رجعوا كلهم عليه فأتعبوه وأهلكوه، فإن لم يستطع اتقاء شرهم فليس أمامه سوى محاربتهم.

#### (٤) العدل أساس الحكم:

ولقد كانت قيمة العدل من أهم القيم التي أفرد بها المرادي مكانا هاما في نسقه السياسي، فالعدل أساس الملك، والعدل هو الفضيلة التي يجب على كل

(١) المرادي السياسة ص ١١١.

حاكم أن ينفذها في ملكه، فهذه الفضيلة إذا تحققت كما ينبغي أن تكون، فإنها تزيد السلطان في علوه وترفع مكانته وقدره، بل إنها تنصره على أعدائه، إذا سيلتف حوله جميع أبناء الأمة، فقد كان عدل عمر أهيّب من سيف الحجاج، فإذا راعي السلطان بين رعيته وجنده العدل رضى بهم جميعهم حتى وإن سخط بعضهم عليه لتعارض العدل مع مصالحه الذاتية، ولكن عليه ألا يأبه بذلك، فيكفيه إجماع العامة على مذهبه<sup>(١)</sup>.

ولقد كانت قيمة العدالة عند المرادي الحضرمي وكما هي عند أكثر فقهاء المسلمين ذات مضمون سياسي هام للغاية، وكانت تأتي قبل قيمة الحرية أو المساواة، وما ذلك إلا لتذكير الحاكم بأن محور سلوكه هو أن يكون عدلا، لأنه إذا كانت الشرعية مردها الاختيار، فإن الطاعة محورها العدالة.

والعدالة كقيمة سياسية عليا منوطة في التطبيق بوجود الإمام الصالح في المقام الأول، لا بوجود قواعد عامة مجردة تقوم الدولة بتطبيقها على الأفراد، والحاكم الصالح هو رجل كامل الإيمان، وافر التقوى، راجح العقل، صحيح البدن، ومن ثم يؤتمن على الحكم بين الناس بالعدل وفي ذلك يقول المرادي "وأحق الناس أن يأخذ نفسه بالعدل السلطان فيما قال أو فعل، لأنه نافذ الأقوال، مسئول عن جميع الخلق بل إنه ينصح السلطان بأنه إذا أراد أن يفعل فعلاً من الأفعال فعلية أن ينظر كيف ذلك الفعل عنده وعند غيره من الناس، فإذا كان عنده صالحا وعند الناس فاسدا فليتركه ما استطاع لأنه لن يجد من الناس من يعذره في فعله، وليعلم السلطان أن الناس يرمون الولاة بسوء العهد

(١) المرادي السياسة ص ١٠٧-١٠٨.

وقلة الإنصاف (العدل) فإذا استطاع أن يزيل ذلك عن عرضه وأعراض نظرائه فليفعل<sup>(١)</sup>.

وهكذا يكون أحد التداخيات المنطقية لارتفاع شأن العدل كقيمة سياسية عليا هو التركيز على دور القيادة باعتبارها أساس الحياة السياسية وعلى أهمية إتباع القائد باعتبار أنه يتميز بقدرات إيمانية وعقلية وجسدية تفوق ما لدى غيره<sup>(٢)</sup> فعلاقة السلطان برعيته هي علاقة الروح بالجسد، والعدل هو علاقة الانسجام التي تربط بين أفراد المجتمع، ولكن ربما ثار السؤال الهام كيف يتحقق العدل وما هو محور العلاقة بين الحاكم والمحكوم؟ وما هي الأسس والمبادئ التي تحدد هذه العلاقة، وما الذي يفصل بينهما في حالة التعارض؟ هل هناك قانون يسير بمقتضاه الجميع؟

في تلك الحقبة من الزمان كان اهتمام مفكري السياسة يدور حول قضية السلطة والسلطان، والحكم والحكومة، ولم يهتموا بالدولة كنسق متكامل يحوي كل هذا، كما لم يهتموا بدراسة الواقع المعاش، وإنما اهتموا بما ينبغي أن يكون طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية أو سنة السلف الصالح، واجتهادات الفقهاء في فهمها، وربما يعد المرادي الحضرمي استثناءً من معظم مفكري السياسة الذي أشار إلى ضرورة وجود قانون وفي ذلك يقول... "ويجب أن تكون سياسته (أي الحاكم) على قوانين مألوفة ولا يكثر من تغييرها"<sup>(٣)</sup> فالمرادي يرى

(١) المرادي السياسة ص ١٠٩.

(٢) د. سعد الدين إبراهيم: المجتمع والدولة في الوطن العربي ص ٨٣-٨٤.

(٣) المرادي السياسة ص ٣٥.

ضرورة وجود قانون يحدد علاقة الحاكم بالمحكوم، ويرى أنها يجب أن تكون مألوفة فلا يكثر من تغييرها حتى تكون لها قيمة وهيبة في التنفيذ، وحتى يعرفها الجميع، وإن بدأ في بعضها ظلم، فإن الظلم المألوف تصبر عليه النفوس أكثر من صبرها على الظلم المتغير، ينصح المرادي الحاكم بأن يستند إلى العدل في استخدامه وتطبيقه للقانون لأنه إذا عمل بالجور أو الحزم، فقد لا يسلم من حقد وكرهية المظلومين.

والواضح هنا أن المرادي لا يقصد بالقانون، القانون الديني الذي يسمى "الشريعة" والذي يختلف اختلافا واضحا عن جميع أشكال القانون، فالمعروف أن الشريعة الإسلامية هي جملة الأوامر والنواهي الإلهية التي تنظم حياة المسلمين من جميع الوجوه، وكانت من المرونة بحيث استمر تواجدتها على مر العصور، وإن اختلفت قوة وضعفا، ولكن ظل المبدأ القائل بأن الإسلام من حيث هو دين ينبغي أن ينظم الناحية القانونية في حياة المسلمين دائما لا يتحداه أحد، وكان الجانب التشريعي الذي يمثله القضاة ملزما في أحكامه بقانون ومبادئ الشريعة الإسلامية.

ومع تفكك الدولة الإسلامية أواخر القرن الثالث الهجري- التاسع الميلادي- وظهور المنازعات السياسية، ابتعد التشريع الإسلامي عن السلطة السياسية وظل محتفظا باستقراره في قوالب نهائية بينما شهدت الحياة السياسية انحلالا في شكل الأنظمة.

كما أنه لا يقصد بالقوانين، القانون الوضعي بمعناه الدقيق (وهي التشريعات التي وضعها الإنسان) وإنما يعني بالقانون القانون الإسلامي الذي

أدمج القانون بمعناه الدقيق في نظام الواجبات الدينية إدماجا تاما، والملاحظ أن المرادي قد استخدم هنا لفظ القانون تأثرا بالفكر اليوناني وخاصة كتاب أرسطو في السياسة والذي اعتمد عليه كثيرا في عرض نسقه السياسي، بل أننا نجده يدعو إلى تغيير تلك القوانين تمشيا مع تطور المجتمع واحتياجاته، فالسلطات العامة ترد عادة إلى الحقوق والواجبات الخاصة كواجب أداء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحقوق وواجبات الأشخاص الذين يختارون شخصا ليكون إماما أو خليفة، وكذلك حقوق هذا الأمير وواجباته، ولذلك فالنظم الأساسية للدولة الإسلامية لم توضع على أنها تؤدي وظائف لجمهور المؤمنين من حيث هم كذلك وإنما اعتبرت فروض كفاية، إذا قام بها عدد كاف من الأشخاص، فإن ذلك يعفي الباقين من القيام بها.

### رابعاً: جوانب الفكر السياسي عند المرادي الحضرمي:

ارتبطت النظرية السياسية عند المرادي الحضرمي بالمقومات الاجتماعية للجماعة الاسمية من ناحية، وبالقيم الأخلاقية من ناحية أخرى، ولذلك كان اهتمامه بالأمة أو الجماعة وما يجب أن يتوفر فيها، والقيم والمبادئ الأخلاقية التي تضمن تحقيق الاستقرار والاستمرار ورغم تأثر المرادي بآراء مفكري السياسة في العالم الهليني، إلا أنه التزم بطابع الإسلام والذي كان يختلف عن الحياة السياسية في الحضارات المجاورة، إذ أنه يجمع بين الشورى ومركزية الحكم، فالخليفة هو السلطة العليا في الدولة ولكنه يرجع إلى أعوانه وإن كان لا يتقيد بما يشيرون به إلا في حدود الدين، هذا من ناحية الحاكم، أما الأمة أو الجماعة فقد راعي المرادي قواعد تجمعها وارتباطها واعتبر هذه القواعد تعتمد على المساواة والأخوة وليس العصبية وهو نفس الاتجاه الذي كان الإسلام قد جاء أساساً به، إذ دعا إلى إحلال المساواة والترابط والمحبة بين البشر جميعاً، فانتفاءاتهم ليست انتفاءات قبلية وإنما يجب أن تحول إلى الدين الذي يخضع له الجميع دون فوارق إلا في مقدار تقوي كل إنسان.

وقد تضمن الفكر السياسي للمرادي جانبين:

## - جانب سياسي، وجانب أخلاقي:

أما الجانب السياسي فقد اهتم فيه المرادي بتوضيح الآراء والمبادئ التي تدعمه فاهتم بأمور السلطان والأمة والشورى والمعاونين.... الخ ولم يكن الجانب الأخلاقي منفصلاً عن الجانب السياسي فجاءت نصائحه وتحذيراته للحاكم والمحكومين، وما يجب أن يتصف به الحاكم من الفضائل الكريمة، وما يجب أن يتعد عنه المحكومون من الرذائل الكريهة مكمله لهذا الجانب بحيث نجد أن المرادي الحضرمي ربما كان من أوائل المفكرين الذين ربطوا بين الفكر السياسي والفكر الأخلاقي في منظومة الحكم الإسلامي. وقد تضمن الجانب السياسي الأمور التالية:

### ١. الاستشارة (أو الشورى وعدم الاستئثار برأي واحد):

إذا كان الحكماء يؤكدون أن من استغنى برأيه قد خاطر بنفسه، وإذا كان "علي بن أبي طالب رضي الله عنه" يؤكد أنه من أعجب برأيه فقد ضل، ومن استغنى بفعله فقد زل، فإن المرادي الحضرمي يؤكد أهمية وضرورة استشارة الحاكم لمعاونيه لأن الاستشارة تفيد المستشار عقلاً وهداية فيدرك بها الصواب<sup>(١)</sup>.

أما ضرورتها فتعود إلى:

(١) المرادي السياسة ص ٢١ وقارن ذلك بأقوال ابن رضوان في الشهب ص ١٥٠، وابن الأزرق

في بدائع السلك ج ١ ص ٣٠٥.

أ- قصور معرفة المستشار أو الحاكم.

ب- خوفه من الغلط في تقدير الأمور حتى وإن لم يكن من أهل التقصير.

ج- قد يغلب الهوى نفس المستشار فيحجب ذلك رأيه ورؤيته فيحتاج إلى مشورة من صفا رايه من كدر الهوى وأبصر مختلف الآراء وأوجهها.

د- ربما كان من يستشيريه شريكا له في الفعل فتكون شورته داعية إلى مودته، ومغرية له على معونته.

ويؤكد المرادي في هذا الجانب على الناحية الأخلاقية والخصال والصفات التي يجب أن يتحلى بها المستشار، وإمعانا منه في توضيح هذه الفضائل فإنه يقرنها بأضدادها من الرذائل، فيرى أنه لكي تؤدي الاستشارة ثمارها، فإنها يجب أن تؤخذ من شخص يتصف بالفطنة والعقل، لأنه إذا لجأ إلى الأحمق الجاهل لم يزدك إلا لبسا، ولم يقدّم بتحقيق نصحك<sup>(١)</sup>، ومنها أن يكون محبا صافي القلب، لأنه أن اتصف بغير ذلك فلا يمكنك أن تؤمن غشه، كذلك يجب أن يكون كامتا للسر ولا يطلع أحدا عليه لأنه إن فشا سره، شاع ذلك سواء بين الأصدقاء أو الأعداء وساعدهم ذلك على نصب الحبائل حولك.

كما ينبه المرادي "المشير له أو من يقدم الاستشارة" إلى بعض الأمور التي يجب أن يراعيها إذا قدم المشورة لمن يطلبها منه منها مثلا:

ألا يلزم طالب المشورة بضرورة الأخذ برأيه هو وضرورة تنفيذه، لأن عدم

(١) المرادي السياسة ص ٦٢.

الأخذ بها ليس معناه قدحا في شخصه، أو عيبا في رأيه، وحتى ولو كانت آراء السلطان مخالفة لرأيه فلا يجب عليه أن يزين له المحال من آرائه، لأن ذلك غش وخداع ومالأة، وإنما عليه أن ينبهه إلى الصواب من رأيه، ويتركه حتى يتبين هو صواب رأيك فيعرف قدرك ويتبع رأيك<sup>(١)</sup>.

## ٢- المعاونون وما يجب أن يتصفوا به:

ويشير المرادي إلى أن السلطان يجب أن يعاونه:

أ- الوزير.

ب- الكاتب.

ج- الحاجب.

ولا يمكن له أن يستغنى عن أحدهم وفي ذلك يقول "كاتبك لسانك، وحاجبك وجهك وعونك (وزيرك)"<sup>(٢)</sup> يدك، فأخذ لنفسك وجهها ولسانها ويداها<sup>(٣)</sup>، فهو يحتاج إلى الوزير ليستعين به في تدبير ملكه ولذلك يفوضه في

(١) المرادي السياسة ص ٦٥-٦٦.

(٢) اختلف علماء اللغة في اشتقاق الوزراء فقال بعضهم أنها من الوزير بكسر الواو، وهو الحمل وكان الوزير قد حمل عن السلطان الثقل ومن هؤلاء ابن قتيبة، والثاني أنها من الوزر بفتح الواو والزاي وهو الحمل الذي يعتصم به لينجي من الهلاك، وكذلك الوزير معناه الذي يعتمد عليه الخليفة أو السلطان ويلتجى إلى رأيه وهذا قول أبي إسحق الزجاج (انظر ابن رضوان:

الشهب اللامعة ص ٢٠٥-٢٠٦).

(٣) المرادي: السياسة ص ٨٣.

الكثير من شئون حكمه ويؤكد ذلك بقوله "احزم الملوك يحتاج إلى وزير، وأشجع الناس يحتاج إلى سلاح، وأجود الخيل يحتاج إلى سوط"<sup>(١)</sup> وقد مثل المرادي الوزير الفاسد مع الملك الصالح بالتمساح الذي يوجد في الماء الصافي.

وعموما فالمرادي يحدد خصائص وصفات يرى أنها ضرورية لكل من يعاون السلطان من الفئات السابقة، فالكاتب يجب أن يتصف بالفصاحة واللسان وحسن الخط، ويكون عالما بالأدب كاتما للسر، كما أن كاتب الأمير أو السلطان يجب أن يكون موثوقا بمروءته حتى لا يخل به في أوقات عسرتة وشدته، أما كاتب الإمام فيجب أن يكون صحيح الأمانة، عارفا بوجوه الجباية، بصيرا بالحساب، رفيقا بالرعية، وأما كاتب القاضي فيجب أن يكون في غاية العدل والنزاهة والمعرفة بالفقه والفصاحة<sup>(٢)</sup>.

أما الحاجب فيجب أن يكون سهل الوجه، سالم الجوارح من كل آفة، عارفا بالناس ومنازلهم وأقدارهم عند رئيسه حتى يكون وجهه عنوانا عن وجه محجوبه من غضب ورضي، وإبعاد وإدناء وللحاجب مكانة ومنزلة رفيعة عند الحكام والأمراء إذ تماثل درجته درجة الوزير<sup>(٣)</sup>.

وأما معاونون فيجب أن يتوافر فيهم:

أ- السياسة: ليتعامل مع كل فرد بما يناسبه فلا يعامل الخاصة بمعاملة

(١) المرادي السياسة ص ٩٩.

(٢) المرادي السياسة ص ٨٣.

(٣) المرادي السياسة ص ٨٤.

العامّة ولا العامّة بمعاملة الخاصّة.

ب- الصدق: ويجب أن تتوفر فيهم هذه الصفة لأنهم يتصرفون في الكثير من الأخبار كما أنهم قد يعلمون رئيسهم بجميع ما يجري في رعيته إذا احتجب.

ج- الطاعة: إذ يجب عليهم أن يوقروا رئيسهم ويبادروا إلى إنفاذ أوامره

د- الشدة: وهي من الخصال المطلوبة عند الضرورة<sup>(١)</sup>

وينصحه المرادي بأن يتخذ من أعوانه ورجاله ووزرائه من يحسن الفعل وإن لم يحسن القول، ويحذره ممن يحسن القول ولا يحسن الفعل لأن الذي يحسن الفعل إن أبدى الصمت ضعفه، كشف الفعل عن قوته، والذي يحسن القول إن أبدى القول قوته كشف الفعل عن ضعفه وقد قيل أن كان الملك جاهلا ووزرائه عالمين، استقام أمره وإن كان عالما ووزراءه جاهلين تفرق عليه أمره واضطرب رأيه.

ويحذر المرادي- السلطان- من أن بعض معاونيه قد يظهر له خلاف ما يبطنه ولذلك فعليه أن يتصور كثيرا من الناس خلاف منازلهم التي هم في الحقيقة عليها، فقد يلاقونه بالتصنع ويعاملونه بالمداينة والتقرب، وينبهه إلى قول الحكماء بأن الأصحاب ثلاثة:

صاحب كالفداء، وصاحب كالدواء، وصاحب كالداء، وينصحه بإبعاد الذي هو كالداء وأن يتحرز منه، أما الاثنان الآخران فيستعمل كل واحد منهما

(١) المرادي السياسة ص ص ٨٤-٨٥ وقارن ابن رضوان: الشهب ص ٣٧٨.

في موضعه، كما يجب عليه أن يبحث عن أهل الفضل، وألا يولي أحدا منهم في غير موضعه، فإذا ولي عاملاً أو قاضياً بعد اختياره، فعليه أن يتعهد بالنظر ويختبره بأن يدس عليه من يأتيه بالرشوة والزمّام في تبديله الحقيقة، فإذا رأى استدام على الامتناع حمد أمره وشدّ أزره، أما من ثبت فساد ذمته، فعليه استبعاده<sup>(١)</sup>. ولكن ما الذي يجب على السلطان أن يفعله إذا كان أحد عماله من القوة والحزم وكان هو من الضعف - ويتساءل المرادي كيف تستقيم الأمور في هذه الحالة؟ ينصح المرادي السلطان في هذه الحالة بالألا يطيل بقاء الحازم منهم على عمله حتى لا يتسبب بأمره ويخرج عن طاعته.

### ٣- تصنيف الحكام وأقسام الحكم وأغراضه:

يستدل المرادي بأقوال الحكماء في تقسيم السلاطين إلى ثلاثة أصناف موضحاً خصائص كل صنف:

**الصنف الأول:** سلطان العدل والأمانة: ويذكر له فضائل أربعاً هي: الأجر - الثناء - النصر - البقاء - فإذا نطق لسان العدل في دار الإمارة، فليشر ساكنها بالعز والعمارة، ويستشهد بكلام أرسطو في قوله "العالم بستان سياجه الدولة، والدولة سلطان تحميه السنة، والسنة سياسة يسوسها الملك، والملك راع يعضده الجيش والجيش أعوان يكفلهم المال، والمال رزق تجمععه الرعية، والرعية عبيد يجمعهم العدل، والعدل مألوف، وبه صلاح العالم"<sup>(٢)</sup>.

(١) المرادي السياسة ص ٩٨ - ٩٩.

(٢) المرادي السياسة: ص ١٠٧ - ١٠٨.

أما **الصنف الثاني**: فهو سلطان الجور والسياسة: وهذا الصنف يحتاج إلى فنون من التدبير وأساليب من المكر والدهاء يستعطف بها القلوب ويزين بها الإبصار.

أما **الصنف الثالث**: فهو سلطان التخليط والإضاعة: وهذا الصنف فيه هلاك سلطانه، إذ أن لذة ساعة تؤدي إلى دمار الدهر كله مما يؤدي إلى فساد الدين والعرض وخسارة الدنيا والآخرة مع استعجال الفقر والذلة<sup>(١)</sup>

#### ٤- الأمة أو الدولة:

من الملاحظ أنه في تلك الحقبة من الزمن ومنذ بداية التفكير السياسي في ظل دولة الإسلام كان اهتمام مفكري السياسة يدور حول قضية السلطة والسلطان والحكم والحكومة، ولم تهتم بالدولة كنسق متكامل يحوي كل هذا، كما أنها لم تهتم بدراسة الواقع المعاش، وإنما اهتمت بما ينبغي أن يكون طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية أو سنة السلف الصالح واجتهادات الفقهاء في فهمها وربما يعد المرادي الحضرمي استثناء من معظم مفكري السياسة الذي أشار إلى قضية القانون رغم فهمه الإسلامي له والذي يختلف عن فهمه بمعناه العام.

غير أن المرادي أو من سبقه من مفكري السياسة لم يشيروا إلى مصطلح الدولة أو المجتمع وأن كان المرادي قد استخدم مصطلحات تقرب بدرجات متفاوتة من هذين المفهومين مثل الرعية- القوم- الجماعة- الأمة- الحكم-

(١) المرادي السياسة: ص ١٠٧-١٠٨

## الحكومة - السلطة - السلطان.

وليس هذا مستغربا فمفهوم الدولة والمجتمع يعدان من المفاهيم الحديثة نسبيا، وقد شاع استعمالهما في الأدبيات الغربية في القرون الخمس الأخيرة<sup>(١)</sup> ولا يعني هذا أن المغرب العربي لم يعرف الدولة أو المجتمع بل عرفهما كما عرف الوحدة في ظل المرابطين والموحدين، لكن الملاحظ أن المفكرين العرب بدأوا يكتبون عن الظواهر الاجتماعية والسياسية وأنظمة الحكم في المراحل التاريخية التي بدأ فيها المجتمع العربي والدولة الإسلامية في الجمود أو الانحسار أو التحلل، أي بدءا من القرن الرابع الهجري، وكان ذلك على يد الفارابي والماوردي في المشرق، وابن حزم وابن باجة والمرادي الحضرمي في المغرب.

ونلاحظ أن المرادي في كتابه "الإشارة في تدبير الإمارة" يشير إلى القاعدة البشرية (الأمة) ووحدة الرمز السياسي (الخلافة) ولكن لم نلاحظ تحقق وحدة الدولة سواء خارجيا في مواجهتها لأعدائها أو داخليا في تحويلها إلى مؤسسات مستولة، بحيث يلتزم أمامها الحاكم بالقانون فتصبح شرعيته مستمدة من مدى التزامه بتلك القواعد والقوانين التي ارتضاها المجتمع واتفق عليها<sup>(٢)</sup>

الجماعة إذن هي أساس الكيان السياسي في الإسلام منذ وثيقة المدينة التي عقدها النبي صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة، والتي ورد في أحد

(١) د. سعد الدين إبراهيم: المجتمع والدولة في الوطن العربي ص ٧٧.

(٢) د. عابد الجابري: نحن والتراث ٦٦-٦٧، رضوان السيد: الأمة والجماعة والسلطة ص ٤٦-

بنودها "المؤمنون وذووهم يكونون أمة واحدة"<sup>(١)</sup> ورغم أن الشورى بين القائد والجماعة هي إحدى القيم المهمة الأخرى في الإسلام وقد أكدها المرادي بقوله "أن الاستشارة تفيد المستشار عقلاً يزيد به إلى عقله، وهداية يجمعها مع هدايته كما يقول "خاطر من استغنى برأيه"<sup>(٢)</sup> إلا أن وحدة الجماعة كانت في نظر الكثيرين من مفكري الإسلام الأوائل - أهم من الشورى<sup>(٣)</sup>

#### ٥- القائد أو الحاكم وما يجب أن يتصف به:

من الواضح أن عنصر القيادة في الكيان السياسي الإسلامي لا ترجع فقط إلى النموذج النبوي في الممارسة، ولكن أيضاً ترجع إلى عمر بن الخطاب حين وقف يخاطب المسلمين بقوله "يا معشر العرب إنه لا إسلام بلا جماعة، ولا جماعة بلا إمامة، ولا إمامة بلا طاعة"<sup>(٤)</sup>.

فقد لخص عمر بن الخطاب وهو نموذج القائد العادل كل ما سينصرف إليه الفكر السياسي الإسلامي في القرون التالية فمعظم كتابات اللاحقين من الماوردي بالمشرق إلى المرادي والمالقي وابن الأزرقي في المغرب - كانت تدور حول صفات الخليفة وخصاله والعدالة وحق السلطان على الجماعة وهو الطاعة، وحق الجماعة على السلطان وهو العدالة، أما حقوق الفرد السياسية فلا أثر لها.

(١) عبد الغني بسبوني عبد الله: نظرية الدولة في الإسلام ص ٧٠.

(٢) المرادي: السياسة ص ٦١.

(٣) د. رضوان السيد: الأمة والجماعة والسلطة، ص ١٢٢ - ١٤١.

(٤) نقلاً عن خليل أحمد خليل: العرب والديمقراطية (بحث في سياسة المستقبل) ص ٥١.

ولقد اهتم المرادي بتوضيح الشروط التي ينبغي توافرها في الحاكم الصالح الذي يحق له الطاعة، كما ركز اهتمامه على إذكاء النصيحة له، وقدم مجموعة من الأصول والقواعد إذا وضعها السلطان وولاية المسلمين نصب أعينهم تحقق العدل والإنصاف.

أما الجانب الأخلاقي فقد اهتم فيه الموضوعات الآتية:

**أولاً:** صفات وخصائص تخص الحاكمين وقد ركز فيها المرادي على تدعيم الفضائل والخصال التالية مع ذكر رذائلها حتى تتضح صورتها منها:

الاعتدال في جميع الأحوال (سواء في المأكل أو الملبس أو المنكح أو النوم، أو التعب أو الراحة)، ففياً يتعلق بالاعتدال في الطعام يؤثر عنه في ذلك حكمه مفادها أن مطاعم الرجال يستدل بها على عقولهم، ويستشهد بها على همهم، فإنه لا يحكم آراءه من ليس يحكم غذاءه وفي الملبس ينصحه بالتوسط، وأن يختار نوع اللبس مما يلبسه سائر البشر فيكون ذلك علامة على تواضعه شرط أن يكون اللبس نظيفاً مناسباً له محكم الصنعة.

أما في الزواج فإنه ينصحه بأن يختار فيمن يطلب معاشرتها أصول ثلاثة:

طيب الأصل، حسن الخلق، وكمال الدين، أما من زاد ذلك من الجمال أو اليسار أو الحسب أو النسب فهو ربح زائد، وإن لم يكن موجوداً فلا يخل ذلك بالأصل، وينصحه بالأينساق وراء أهواء قلبه ونوازهه وألا يسلم أموره لقيادة أمرها بل عليه الاعتدال في حبها.

وكذلك الحال في المال فإنه ينصحه بأن يخفي ماله عن أقرب الناس إليه سواء عن بنيه أو جنده أو عماله، لأن كثرت مضره، وقلته محقرة له<sup>(١)</sup>

كذلك ينصحه بكثرة الصمت في وقت اليقظة ولا يكثر من النوم لأنه يميم القلب ويعطل الشغل.

حب العلم: ينصحه بأن يحب العلم إلى نفسه حتى تألفه فيكون فيه راحتها ولذتها وسواء كان العلم علما منافعا أو علما لتزكية العقول ونشاطها فهو مفيد للعقول منشط لها لأن الملوك العلماء بقيت بالعلم أذكراهم وأن الملوك الجهال ماتت معهم أخبارهم.

أن يتصف بأخلاق المروءة، من خفض الصوت، ولين الكلمة دون كبر أو عجب، وألا يكون منقبضا عن الأناس فيغضبوه، ولا منبسطا فيلتف حوله أصدقاء السوء، والأصح أن يتقبض مع العامة، وينبسط مع الخاصة، ويتعامل مع الجميع بحكم الخبرة، وأن يتصرف وفقا للقواعد والأصول ويكون ذلك بحكم الحقيقة لا بحكم الشهوة<sup>(٢)</sup>.

ويؤكد المرادي أن هناك أربعة أمور إذا اجتمعت في السلطان كثر صحبه ووجب حبه وهي: العدل - البذل - التجب - الرفق - والمروءة في الخلق السجيج، والكف عن القبيح، فالكلمة الطيبة تسهل الوعر، وتذلل الصعب، وتكثر الصحب، وتملك القلب، ولو لم يكن في هذا المجال إلا قوله تعالى (أدفع

(١) المرادي السياسة ص ٦٧-٦٨.

(٢) المرادي السياسة ص ٦٩-٧٠.

بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم). كما يؤكد المرادي - لكان ذلك كافيا ووافيا في أن يملك الأمر كله.<sup>(١)</sup>

وعموما فإن المرادي يلخص ما يجب أن يتجمل به الحاكم من الآداب والحكم مسترشدا بأقوال ابن المقفع في كتابه "الدرة اليتيمة" وحديثه عن صديق له كان من أعظم الناس في عينه لأنه كان خارجا عن سلطان بطنه، وسلطان فرجه، وسلطان الجهالة، وكان أكثر دهره صامتا فإذا قال بذا القائلين، وكان ضعيفا مستضعفا فإذا جاء الجذ فهو الليث.... وكان لا يدخل في دعوى ولا يشارك في مرء ولا يلبي بحجة حتى يرى قاضيا منصفًا، وشهودا عدولا.... وكان لا يشكو وجعا لمن لا يرجو عنده البرء، ولا صاحبًا لمن لا يرجو عنده النصيحة، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يشتكي، ولا ينقم من الوالي، ولا يغفل عن العدو، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه بحيلته وقوته.

وينصحه المرادي بأن يأخذ بهذه الفضائل، فإن لم يستطع أخذ ما استطاع منها، فإن أخذ القليل خير من ترك الجميع<sup>(٢)</sup>.

(١) المرادي السياسة ص ١٥٣.

(٢) المرادي السياسة ص ١٦٠-١٦١.

## تصنيف الناس وطبقاتهم وفقا لأخلاقهم:

يرى المرادي الحضرمي أن الخلق مغروز في طبيعة البشر، وإنه إذا كان كل إنسان قد ركب فيه جزء من سوء الطبيعة، فإن العاقل هو الذي يستطيع دفع ما ينتج عن سوء طبيعته بالمجاهدة والمثابرة والصبر والحلم، أي أنه يرى أن ممارسة الفضيلة هي الوسيلة لتحجيم الرذيلة والقضاء عليها<sup>(١)</sup>.

وقد قسم العلماء والملوك السابقين الناس ثلاثة أجناس:

١- كريم فاضل: ويعود ذلك إلى أصله وعشيرته.

٢- لثيم سافل: صار اللؤم إليه من أحد أبويه أو أصحابه أو من عمل من الأعمال التي تقتضيه.

٣- متوسط بينهما.

وقد قالت الحكماء: أن الناس طبقات في الطبائع والخلاق ومذاهبهم شتى في جميع الأحوال، وكان بعض ملوك الفرس كما يذكر الحضرمي يجعل لكل طبقة من الناس زيا معيناً يعرف به مكانه فلا يتقل عن لباسه حتى يظهر من الفعل ما يستدل به على فضله، فيتقل بإذن الوزير إلى الطبقة التي فوقه، وهذا في رأى الحضرمي أفضل لإبقاء السياسة في مواضعها ومعاملة كل طبقة بما تستحقه، ولكن ما هو الأسلوب الأمثل لمعاملة هذه الأجناس المختلفة؟

(١) المرادي السياسة ص ١٣٠.

يرى الحضرمي أن ضبط الكريم وملكه إنما يكون بالإكرام والإنصاف والمودة والاستعطاف فهو مأمون إذا شبع، ولكنه مخوف إذا جاع وقهر، فإذا جعلته سيدا كان لك عبدا، وكلما رفعتة تواضع لك.

أما اللثيم فعامله بحذر لأنه مخوف إذا شبع وقدر، ومأمون إذا جاع وقهر ولا تحاول أن ترفعه لأنك إن رفعتة ترفع عليك، فإذا أكرمت اللثيم ظهر منه الشر، وإذا ازددت في كرمه تمرد عليك.

أما المتوسط فيجب أن تعامله بقدر ما فيه من الإكرام والإهانة، وأمزج له الرغبة بالرهبة، وقابل له الإكرام بالإهانة فإنه يطيعك خوفا من عقابك، ورجاءا في ثوابك، وحاذر أنك لو عاملته بأحد الطرفين لانقض عليك الطرف الثاني منه<sup>(١)</sup>.

وعموما فيجب أن تعاشر كل إنسان بما يحمله خلقه - كما يؤكد المرادي ذلك ولكن بعد معرفتك بطبعه، والأفضل أن يظل الناس في حاجة إليك فتستطيع أن تملكهم بقضاء حاجاتهم، وتعزز عليهم بالاستغناء، لأنهم أن شعروا أنك في حاجة إليهم أهانوك وفي ذلك يقول "وأعلم أنهم عبيدك ما دامت لهم حاجة إليك، وأعداؤك ما دام لهم عنك غنى، فعاشرهم في وقت استغنائهم عنك بخلاف معاشرتهم في وقت حاجتهم إليك"<sup>(٢)</sup>.

(١) المرادي السياسة ص ١١٣.

(٢) المرادي السياسة ص ١١٤.

### نظرية الوسط الذهبي عن المرادي الحضرمي:

تأثر المرادي بالفكر الأخلاقي الأرسطي، واعتنق نظرية الوسط الذهبي كما نادى بها أرسطو، واعتقد أن الفضيلة هي وسط بين إفراط وتفريط، فهو على سبيل المثال حين أوصى الحاكم بفضيلة الصبر فإنه يوصيه معها بالحلم، وحين أوصاه بالحكمة فقد جعلها وسطا بين الكلام والصمت وهكذا في سائر الفضائل.

### خامسًا: سياسة المرادي وأثرها على مفكري المغرب والأندلس:

ولاشك أن هذا الكتاب بما تضمنه من آراء سياسية وفلسفية كان ملهمًا ومرشدًا لمفكري المغرب في هذا المجال، فقد اعتمد عليه "ابن الأزرق" في كتابه بدائع السلك في طبائع الملك" ونقل نصوصًا كثيرة منها ونسبها إلى صاحبها، "وابن رضوان" في مؤلفه الشهب اللامعة في السياسة النافعة ت٧٨٣هـ وكان من الكتب الهامة التي اعتمد عليها ابن خلدون في مشروعه السيامي المقدمة.

## أولاً: ما بين سياسة المرادي وشهاب ابن رضوان:

يقول د. علي سامي النشار محقق كتاب الشهاب اللامعة لابن رضوان "لكتاب الشهاب ميزة هامة في البحث العلمي في علم السياسة عند المسلمين فقد حفظ لنا نصوصاً مهمة عن كتابين من أهم الكتب في علم السياسة عند المسلمين وهذان الكتابات هما كتاب السياسة لابن حزم، وكتاب السياسة للمرادي وهذا الأخير قدم ابن رضوان نصوصاً منه في كتابه الشهاب اللامعة، ويذكر أن ابن رضوان قد استفاد منه استفادة كبيرة فنقل نصوصاً هامة منه وكان ينسب النصوص إليه أحياناً وأحياناً أخرى يوردها مرسله دون ذكر المرادي، ويؤكد أن ابن رضوان كان لديه نسخة كاملة من هذا الكتاب كما كان يوجد بالقصر المريني نسخة منه، وإذا عرفنا أن ابن رضوان وابن خلدون كان صديقين ويعيشان في القصر المريني حيث كان ابن خلدون كاتباً للسلطان المريني ابن سالم<sup>(١)</sup> لأدركنا أن ابن خلدون لا بد وأن يكون قد أطلع على كتاب المرادي في السياسة، ولا شك أن إشارة ابن خلدون إلى الدولة المستجدة وتحليله لها إنما يعود فيه الفضل إلى المرادي الحضرمي الذي أشار إليها في كتابه "الإشارة في تدبير الإمارة"، هذا وسوف نشير أثناء تحليلنا للفكر السياسي عند المرادي الحضرمي إلى ما نجده من تشابه بينه وبين آراء اللاحقين عليه.

وعلى سبيل المثال فإن ابن رضوان يستشهد في الباب الخامس من كتابه "الشهاب" وهو بعنوان في مجلس الملك وظهوره وخفائه وذكر الوفود.... يورد

(١) د. علي سامي النشار: مقدمة تحقيق كتاب الشهاب اللامعة لابن رضوان ص ٣٧.

نصا للمراذي في سياسته بقوله "ليكن جلوسك تربعا وضحكك تبسما وإياك وتشبيك الأصابع وإدخالها في الأنف والعبث بالقلنسوه ووضع اليد على اللحية وتقليم الأظافر بحضرة الناس وبحضرة السلطان وإذا مشيت فلا تضرب برجليك ولا تنظر في عطفك، ولا تتمايل تمايل المرأة ولا تثب وثوب الطفل، ولا تقف على الجماعات.... إلى آخر نص المرادي الذي ذكره في الباب التاسع بقوله: ولا تكثر الانشراح الدال على الفرح ولا الانقباض الدال على الحزن، ولتكن من التوسط على حال لا يدري معها ما في نفسك ولا يستبدل بها على شيء من أمرك<sup>(١)</sup>.

كما يورد للمرادي نصا في هيئة الجلوس والركوب وسائر التصرفات "وقد ذكره ابن رضوان تحت عنوان "في سيرة الملك مع خواصه ويطائته.... وقد لخصه ابن رضوان وعرضه في كتاب مسترشدا بأراء المرادي في هذا الباب<sup>(٢)</sup>.

أما في الباب السادس عشر من كتاب ابن رضوان وهو بعنوان في الحزم والدهاء وكتم السر والقوة وما يلحق بذلك فإنه يذكر المرادي بقوله قال المرادي في سياسته الحزم هو النظر في الأمور قبل نزولها وتوقي المهالك قبل الوقوع فيها<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن رضوان: الشهب اللامعة ص ١١٨-١١٩ وقارن المرادي السياسة ص ٨٩.

(٢) ابن رضوان: الشهب اللامعة ص ١٦٤، وقارن المرادي السياسة ص ٨٩-٩١.

(٣) ابن رضوان ص ٢٦٩ وقارن المرادي السياسة ص ١٣٣.

## ثانياً: ما بين سياسة المرادي ومقدمة ابن خلدون:

وإذا كانت أبحاث المقدمة لابن خلدون، والآراء الواردة فيها تشكل كلها وحدة لا تتجزأ، وتعبّر عن الفكر الخلدوني، وتعكس طابعه العام وهو الطابع الذي انتهى إليه بعد نضجه وإمامه بمختلف معارف عصره بعد تمثله للتراث الثقافي الإسلامي بمختلف مناحيه تمثيلاً عميقاً واعياً فترة لا تقل عن تسع سنوات قضاها منعزلاً متأملاً في عزلته الشهيرة بقلعة ابن سلامة، وهو يومئذ في الخامسة والأربعين من عمره مصاحباً فيها ابن رضوان، وقد عرفنا كيف كان كتاب السياسة للمرادي من أهم الكتب التي اعتمد عليها ابن خلدون مما يرجح أيضاً أن ابن رضوان قد أطلع على هذا الكتاب الهام واستفاد منه استفادة واضحة، على الرغم من أنه لم يذكر ذلك صراحة، كما أنه لم يذكر كتاب صاحبه ابن رضوان "الشهب اللامعة" وأغفله كما أغفل ذكر جميع الكتب التي ألفت في عصره وقبل عصره، ومن المعروف أن ابن رضوان كان صديقاً حميماً لابن خلدون كما يذكر هو ذلك في "التعريف"<sup>(١)</sup> كما كانا موظفين ساميين في حاشية السلطان، ويؤكد الدكتور "عابد الجابري" أن صاحب المقدمة قد أطلع خلال تلك الفترة من حياته سواء في الأندلس أو في فاس على كتب أخرى في السياسة والآداب الملوكية والرسائل المؤلفة في هذا الموضوع سواء منها ما صنف من قبل، أو ما تم تأليفه في عصره، من ذلك ما كتب صديقه "ابن الخطيب" في هذا الموضوع وخاصة كتابه "تاريخ غرناطة" وكتاب سراج الملوك للطرطوشي، وكتاب المرادي الحضرمي في السياسة، وكتاب السياسة المنسوب لأرسطو، ومما

(١) كتاب التعريف ص ٧٠.

يرجع إطلاعه على هذه الكتب وغيرها- كما يؤكد الجابري- أنه تعرف في هذه المرحلة من حياته على جوانب كثيرة من الفكر السياسي لأن الوظائف التي تقلدها كانت تتطلب منه الإطلاع على ما يسمى بأداب الملوك أو الآداب السلطانية إطلاعاً نظرياً وعملياً معاً<sup>(١)</sup>.

وكيف لا يعرف ابن خلدون المرادي الحضرمي وقد أرخ لتاريخ المغرب وعرض لجغرافيتها وممالكها وملوكها، بل أنه عرض لإشعار كثير من شعرائهم<sup>(٢)</sup>.

ليس هذا فحسب، بل أن د. علي عبد الواحد وافي يؤكد أنه تتلمذ على يد مجموعة من الأساتذة ويذكر منهم عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي<sup>(٣)</sup>، ويبدو أنه تتلمذ على الأب الذي كان فقيهاً وتولى قيادة ديوان الجند كما يقول ابن الأحرر<sup>(٤)</sup>، كما يذكر ابن خلدون أنه تتلمذ على يد عبد الله بن يوسف المالقي، وذلك في كتاب التعريف وما ذكره د. علي عبد الواحد وافي يؤكد علاقته الوثيقة بابن رضوان وإطلاعه على كتابه الشهب اللامعة وبالتالي معرفته بكتاب السياسة للمرادي الحضرمي، وهو الكتاب الذي أطلع عليه ابن رضوان واقتبس منه كثيراً.

وقد كان لهذا التراث كله أثره في تحول ابن خلدون في هذه الفترة من حياته

(١) د. عابد الجابري: فكر ابن خلدون، العصبية والدولة ص ٦٤-٦٦.

(٢) ابن خلدون العبرج ٦ ص ١٨٢، وما بعدها، وكتاب التعريف ص ٣٦٠.

(٣) مقدمة ابن خلدون: تحقيق د. علي عبد الواحد وافي المقدمة ص ٤٣، ١٥٧.

(٤) ابن الأحرر: مستودع العلامة ص ٥١-٥٢ تحقيق محمد بن تاويت التطواني.

من الاهتمام بالسياسة إلى الاهتمام بالتاريخ، من الاهتمام بالفلسفة والشعر إلى تأمل الواقع الاجتماعي والسياسي لعصره والعصور السابقة له.

وإن نظرة فاحصة إلى ما ورد في كتاب السياسة للمراي من اهتمام بسياسة الملوك وآدابها والقواعد التي يجب أن يراعيها الحكام في تدبير شئون رعاياهم والمراتب السلطانية، والوظائف الحكومية، ومالية الدولة وجنودها وغير ذلك مما يتعلق بتدبير أصول الحكم والآداب الأخلاقية، فإننا نجد أن هذه المسائل هي جزء من المسائل التي يبحث فيها علم العمران، بل أنها تشكل المحور الأساسي الذي تدور عليه أبحاث ابن خلدون في مقدمته، ولكن الفرق بينها أنه بينما نجد كتاب المراي يعتمد على الوعظ وتقديم النصح والوصايا بالاستكثار من الأحاديث والآثار والحكم والأقوال، ويلجأ إلى الإقناع الخطابي، نجد ابن خلدون قد اتخذ لنفسه منهجا يستهدف دراسة الظواهر كما هي ويعتمد على النتائج التي يقررها على البرهان لا على الإقناع الخطابي.

وإذا كان المراي يعني بمصطلح الدولة "القوة والسيطرة والسلطان" ويشير كثيرا إلى ما يسمى بالدولة المستجدة، فإن ابن خلدون حين يتحدث عن الدولة ويميز بين الدولة المستقرة والدولة المستجدة أو الحادثة<sup>(١)</sup>، فإنه يعني بالدولة المستقرة الدولة القائمة التي نشبت الثورة ضدها، نتيجة الصراع بين العصبية للدولة المستقرة وقيام إحدى العصبيات الثائرة ضدها والتي تستهدف الإطاحة بها وتأسيس دولة جديدة، أما الدولة المستجدة أو الحادثة فهي دولة العصبية الثائرة المطالبة بالملك والتي لم تنته بعد من القضاء على الدولة القديمة

(١) ابن خلدون المقدمة ج ٣ ص ٧٠٢.

المستقرة، ولا شك أن تفسير ابن خلدون هذا لم يخرج عن مفهوم الدولة بمعناها عند المرادي<sup>(١)</sup>.

(١) انظر المرادي: السياسة المقدمة ص ٣١.

### ثالثاً: ما بين سياسة المرادي وبدائع سلك ابن الأزرق:

أما أبو عبد الله شمس الدين محمد بن علي بن محمد المشهور بابن الأزرق المتوفي سنة ٨٩٦هـ أي بعد وفاة ابن خلدون بنحو تسعين سنة، فقد اعتمد اعتماداً كبيراً في كتابه "بدائع السلك في طبائع الملك" على كتاب المرادي "السياسة" ونقل منه نصوصاً بأكملها وخاصة في الأبواب المتعلقة بأركان الملك، وفيما يطلب من السلطان، وعوائق الملك، وذكر اسم المرادي مراراً، وسوف نشير إلى بعض ما نقله ابن الأزرق عن المرادي:

ففيما يتعلق يتعلق بتأكيد المرادي على ضرورة توفر شرطي العقل والتجربة فيمن يستشار ذكر ابن الأزرق هذا الشرط تحت عنوان "العقل الكامل بطول التجربة مع الفطنة والذكاء، ثم أورد نص المرادي معللاً ذلك بقوله "لأن الأحمق الجاهل إذا استشرته زاد في لبسك وأدخل عليك التخليط في رأيك، ولم يتم بحقيق نصحك"<sup>(١)</sup>.

وكذلك الحال في أن يكون محباً صافياً كما يؤكد المرادي ذلك، نجد ابن الأزرق يضع هذا الشرط تحت عنوان "المحبة الحاملة على خلوص النصيحة" ويقول "لأنه إذا كان كذلك أمنت من غشه، واجتهد لك في نصحه ونظر في أمرك بجميع أجزاء قلبه"<sup>(٢)</sup>.

وقد نقل ابن الأزرق شروط المرادي في ضرورة أن يكون جند السلطان

(١) انظر ابن الأزرق: بدائع السلك ج ١ ص ٣٠٩ وقارن المرادي السياسة ص ٦٢.

(٢) انظر ابن الأزرق: بدائع السلك ج ١ ص ٣٠٩ وقارن المرادي السياسة ص ٦٣.

أجناسا متفرقة من قبائل شتى حتى لا يتهيا لها الاتفاق، وأن يسوس جنده سياسة تخرج شيوخه وقادته عن الاتفاق والصدقة، وكذلك ضرورة أن يتجنب تفضيل أحد من الجنود أو الحاشية على غيره بما لا يستحقه لأن ذلك مفسده لمن فضله، ولمن فضل عليه - نقلا كاملا مستشهدا برأيه<sup>(١)</sup>.

وهكذا نستطيع القول بأن المرادي الحضرمي قد ترك بصماته الواضحة على مفكري السياسة من بعده بل نستطيع القول بأن آراءه وأفكاره السياسية والأخلاقية قد تجاوزت ابن المقفع وعلت على ابن رضوان وابن خلدون وابن الأزرق وغيرهم من المفكرين الذين اتخذوا من المرادي الحضرمي وكتابه "السياسة" منارا يهتدي به في ظلام أساليب الحكم والسياسة، واضطراب القيم والمبادئ الأخلاقية.

(١) انظر ابن الأزرق: بدائع السلك ج ١ ص ٣١١.

## المصادر والمراجع

- ابن الأبار  
ابن بسام  
ابن بشكوال  
ابن الزياد التاولي:  
محمد ضياء الدين الرئيس:  
رضوان السيد:  
د. سعد الدين إبراهيم  
ابن خلدون:  
خالد محمد خالد  
عابد الجابري:  
حامد ربيع:  
عبد الغني بسيوني عبد  
الله  
خليل أحمد خليل  
الجاحظ:  
المقري التلمساني  
ابن أبي زرع
- المعجم في أصحاب القاضي الإمام علي المصري مكتبة بغداد  
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة طبعة بيروت، تحقيق الدكتور إحسان  
عباس  
الصلة ٢ جزء القاهرة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.  
التشوف إلى رجال التصوف: تحقيق الأستاذ أودلف فور الرباط  
١٩٢٨م.  
النظريات الإسلامية ط ٤ دار المعارف مصر سنة ١٩٦٧م.  
الأمّة والجماعة والسلطة، بيروت دار اقرأ سنة ١٩٨٤م.  
المجتمع والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية  
ط ١ بيروت ١٩٨٨م.  
المقدمة تحقيق د. علي عبد الواحد وفي ج ١، ج ٣، دار نهضة مصر  
ط ٣  
الدولة في الإسلام دار ثابت، ١٩٨١م.  
نحن والتراث - المركز الثقافي العربي - المغرب سنة ١٩٥٨ ط ٤  
سلوك المالك في تدبير الممالك  
نظرية الدولة في الإسلام - بيروت - الدار الجامعية سنة ١٩٨٦م.  
العرب والديمقراطية بحث في سياسة المستقبل - بيروت دار الحداثة  
سنة ١٩٨٤م.  
التاج في أخبار الملوك - باريس سنة ١٩٥٤م.  
"أزهار الرياض" في أخبار عياض ملحق بكتاب الإشارة في تدبير  
الإمارة للمرازيقي الدار البيضاء ١٩٨١م  
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ

- مدينة فاس، توفيق محمد الهامشي القلاي ج ٢، ١٣٥٥ هـ.  
البيان المغرب ج ٤.  
المراكشي:  
عباس إبراهيم المراكشي  
عابد الجابري
- الإعلام بما حل بمراكش واغيات من الإعلام ج ٢ طبعة الرباط.  
العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي دائرة  
المعارف الإسلامية- الترجمة العربية ج ١٢ مادة سلطان.  
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري- ترجمة د. عبد الهادي  
آدم ميتز  
أبو ريذة ٢ القاهرة سنة ١٩٥٧ م.  
H. A. R. Gibb: Islamic society and the west vol. ١ London  
١٩٦٧
- سلسلة عالم المعرفة- القسم الثالث شياخت دبوروث ترجمة حسين  
مؤنس: إحسان صدقي العمد- مراجعة د. فؤاد زكريا  
تراث الإسلام  
الطرطوشي  
ابن رضوان
- سراج الملوك مصر ١٢٨٩.  
الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق د. علي سامي النشار- دار  
الثقافة- الدار البيضاء سنة ١٩٨٤ م.  
ابن الأهر  
المرادي الحضرمي
- مستودع العلامة تحقيق محمد بن تاويت التطواني، الرباط ١٩٧٢ م.  
السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة تحقيق د. علي سامي النشار-  
دار الثقافة- الدار البيضاء ١٩٨١.  
ابن الأزرق
- بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق د. علي سامي النشار بغداد  
١٩٧٨ م  
عبد الواحد المراكشي
- المعجب من تلخيص أخبار المغرب تحقيق الأستاذ محمد سعيد  
العريان، القاهرة ١٩٦٣ م.  
الأستاذ محمد عبد الله  
عنان
- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس  
السياسة طبعة مصر سنة ١٩٥٥ م.  
أرسطو
- التمثيل والمحاضرة، طبعة القاهرة ١٣٨١ هـ- ١٩٦١ م.  
الأدب الكبير، دار التوفيق للطباعة بيروت عام ١٩٧٨ م  
الثعالبي  
ابن المقفع

الأدب الصغير، دار التوفيق للطباعة بيروت عام ١٩٧٨ م  
الذرة اليتيمة والجمهرة الشمينة: نشرة دار النجاح بيروت تقديم  
وشرح أحمد رفعت البدرأوي.

ابن المقفع

ابن المقفع

obeyikahna.com